التّشاكل واللاّزمة في الخطاب الشّعريّ لدى سيدي لخضر بن خلوف

أ.د. مزاري شارف

جـــامعة سعيـــدة.

تقديم:

تحاول هذه المداخلة أن تباشر مهمّة التّنقيب في الخطاب الشّعريّ لدى سيدي لخضر بن خلوف، والعناية به في البحث العلميّ على اعتبار أنّه جزء من تراث الدّولة الجزائريّة عبر عصورها المختلفة، ولذلك يظلّ (بكلياتها Fexalite) هاجس الاهتمام بهذا الموروث الشّعبيّ قائما؛ لأنّ أدبيّة الخطاب الصّوفيّ ونصيّته الغيبيّة والأدبيّة والجماليّة تشكّل حضورا دلاليّا في الوعي الفلسفيّ والدّينيّ والنّقديّ والذّاكرة الشّعبيّة عموما.

ولعلّ ما يميّز حضورها هذا هو نوعيّة الأسئلة الّتي تثيرها بوصفها مرجعيّة أدبيّة ضاغطة، الأمر الّذي يجعلها خاضعة دوما للبحث. كما تسعى هذه المداخلة إلى أن تضع بين أيدي الدّارسين والباحثين توصيفة شاملة لملامح الخطاب الشّعريّ عند أحد أبرز الأعلام في الشّعر الشّعبيّ؛ حيث يحيل خطابه على الفحوى السّماويّ كما تستمدّ شعريّته أصولها من مرجعيّة إعلائيّة إسلاميّة وفي طليعتها المتن القرآنيّ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتشكّل خطاب سيدي لخضر بن خلوف الشّعريّ من ثنائيّة دينيّة ظلّت تطبع شعره؛ يتعلّق الأمر بظاهرة التّصوّف والمديح النّبويّ، ولذلك ستنصبّ مداخلتنا في هذا الاتجاه.

1- **الخطاب الصّوفيّ**: لقد تضمّن خطابه الشّعريّ جملة من الخصائص الدّينيّة التّعبديّة المرتبطة بالوعظ والحكمة والورع، ولعلّها السّمة الأولى الّتي يتشاكل فيها مع بعض شعراء العصر الجاهليّ حيث «كان شعر التّديّن يظهر في صورة أبيات مفردة تأتي عرضا في قصيدة تعالج موضوعا ما؛ لكنّ شعر التّديّن هذا كان عبارة عن حكم متفرّقة أتت نتيجة للتأمّل وللتّجربة فجاءت صادقة تتعلّق بالموت وما بعده.»[1] ولعلّ الّذي جعل الشّعر الصّوفيّ يتّسم بطابع القلّة في العصر الجاهليّ هو غياب الوازع الدّينيّ والانغماس في المحظورات كالخمرة والرّبا وما شابه ذلك.

إنّ شاعرنا يتقاطع مع بعض الشّعراء الجاهليين من نحو«عدي بن زيد المشهور بالوعظ والتّذكير، ومن الشّعراء المتحنّفين الّذين تلمّسوا دين إبراهيم المأمور الحارثيّ وأكتم بن صيفيّ، وزيد بن عمر بن نفيل وورقة بن نوفل، وأبو القيس الرّاهب، وأميّة بن أبي الصّلت»[2]. غير أنّ شعرهم في مجال التّصوّف لم يكن مستقلّا في غرض شعريّ يحمل معنى التّصوّف، لكنّه كان يجيء عرضا ضمن القصيدة في شكل حكم ومواعظ، من ذلك مثلا قصيدة لعدي بن زيد الّتي منها هذه الأبيات:

ربّ ركب قــد أناخوا عندنــا ..... يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا دهرا بعيش حســـن ..... آمنــي دهرهم غير عجــال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم ..... وكذاك الدّهر يودي بالرجال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكذاك الدّهر يرمي بالفتى ..... في طلاب العيش حالا بعد حال[3]

هذا التّماس مردّه إلى تأثّر شعراء الملحـــون بالرّافد الشّعريّ العربيّ في عموم الأغراض، على أنّ شاعرنا زاوج بين التّصوّف والمديح الدّينيّ في رائعته المشهورة الخالدة.

2- **المديح الدّينيّ:** لقد ظلّ الوليّ الصّالح سيدي لخضر بن خلوف طوال حياته مستخّرا لمدح الرّسول-صلّى اللّه عليه وسلّم- لدرجة أنّهم يقولون: إنّه رآه في المنام تسعا وتسعين مرّة*. ولا تزال هذه القصيدة مستوية على سوقها توشّح المراسيم الجنائزيّة والمناسبات الدّينيّة، حيث تتعاقب على حفظها أجيال كثيرة في الزّوايا والكتاتيب ولدى إحياء ذكرى أولياء الله الصّالحين في هذا الوطن المفدّى.

لقد اغتدى مطلعها لازمة أدبيّة فرضت حضورها فنيّا وجماليّا، لا يمكن أن تنسى:

محمد آي سيـــدي صلّى الله عليـــك لبدا

محمد آ العربـــي وما عزّك يا عين وحدا[4]

هذه اللاّزمة تتكرّر تسعا وعشرين مرّة بحيث تأتي عقب كلّ بيتين شعريين حول مدح الرّسول-صلّى اللّه عليه وسلّم- وقد تشكّلت ضمن حروف الهجاء كلّها بدءا بالألف وانتهاء بالهمزة على هذا النّحو:

بالألف بديـــت نشدي والصلاة على الهادي

في ليلة قبري ولحدي لا تجعل موتي نكادا

ثمّ تأتي اللاّزمة المذكورة، وينتقّل إلى حرف الباء ضمن بيتين شعريين آخرين، فاللاّزمة مجدّدا. وهكذا حوّل القصيدة إلى إلياذة أو ملحمة مديحيّة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غاية في الإبداع، ولعلّ الّذي منحها خاصيّة الحضور والحفظ ثمّ الخلود كونها تنهض على الازدواجيّة بين الإيقاع واللاّزمة، مما شكّل إيقاعيّا إنشاديّا سرمديّا يتردّد صداه في نفوس العارفين بالله، وقد أطلقنا عليه الإيــقاع الثّنائيّ الّذي «يتشكّل عبر النّصّ القرآنيّ من زوجين إيقاعين أحدهما يساق ضمن المتن ويكون متغيّرا من حيث اللّفظ، لكنّه يحافظ على الإيقاع، والآخر يكون ضمن اللاّزمة ويتردّد بطريقة اطراديّة ويلزم حالة واحدة شكلا ومضمونا.»[5] وهي سيرة مألوفة في الخطاب القرآنيّ تتجسّد في سورة "الرّحمن" حيث تتكرّر اللاّزمة **{فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان}** إحدى وثلاثين مرّة، وفي سورة "المرسلات" عشر مرّات وهكذا.

ولقد سيقت لتحقيق أغراض مختلفة منها سهولة الحفظ، جماليّة التّركيب، تجديد النّفس «لأنّ مثل هذه السّيرة الإيقاعيّة لم تحدث من القوّة والتّماسك والتّوحد إلاّ في هذه الوحدة من النّصّ وهي إنّما كانت من أجل تجديد النّفس الإيقاعيّ في جملة.»[6]

فاللاّزمة خصّيصة فنيّة من تأصيل المتن القرآنيّ إذ تساق لتحقيق أغراض من أهمّها:

«أ: كونها تشير إلى تجديد المضمون.

ب: تعدّ متنفّسا يخلد فيه القارئ لتجديد نفس المتابعة.

ج: تضفي على القصّة مسحة جماليّة رائعة.

د: يمكنها أن تردّد إذا كانت القراءة بين فرد وجماعة.

هــ: تعدّ القلب النّابض للنّصّ الّذي سيقت فيه إذ هي بمثابة بؤرة النّصّ.»[7]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولقد وردت اللاّزمة في القرآن الكريم على النّحو الآتي:

1- **سورة الأعراف:** اللاّزمة*: وإلى عاد أخاهم هودا، اسم القبيلة + اسم النبيّ، وتتكرّر مع أنبياء الله: نوح- هود- صالح- شعيب عليهم السّلام.

2- **سورة هود:** الشّيء نفسه وتتكرّر مع أنبياء الله: هود- صالح- شعيب.

3- **سورة مريم:** واذكر في كتاب مريم، وتتكرّر مع: إبراهيم- موسى- إسماعيل- إدريس عليهم السّلام.

4- **سورة الشّعراء:** وردت على هذه الصّيغة: "إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم"؛ تتكرّر مع أنبياء الله: موسى- إبراهيم- نوح- هود- صالح- لوط- شعيب.

5- سورة النّمل: هكذا "أ إله مع الله؟" تتكرّر خمس مرّات، وهي تتوسّط سردا سابقا، وآخر لاحقا يجسّد عظمة الخالق، ويقوم على وتيرة قصصيّة.

6- سورة الصّافات: تظهر هكذا: "سلام على آل ياسين إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّه من عبادنا المومنين"، وتتكرّر مع: نوح- إبراهيم- موسى- هارون- إلياس.

7- سورة القمر: اللاّزمة "ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مذكر"، تتكرّر مع: نوح- هود- صالح- لوط- موسى عليهم السّلام.

8- سورة الرّحمن: اللاّزمة أو المرتكز الإيقاعيّ هو: "فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان"، وتتكرّر إحدى وثلاثين مرّة.

9- سورة الواقعة: اللاّزمة هي: "أفرأيتم"، تتكرّر أربع مرّات وهي أقصر لازمة في القرآن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

10- سورة المرسلات: تعرض اللاّزمة هكذا: "ويل يومئذ للمكذّبين"، تتكرّر عشر مرّات.

التّشاكل لدى الشّاعر:

يظهر التّشاكل الشّعريّ بين سيدي لخضر بن خلوف وبين شعراء الفصيح على هذا النّحو:

يقول لخضر بن خلوف:

الجيم جنات الخلد فيها لأمتك ربّي عطاهـــا

أنت اللي تلتام بهـــا تمنعهم من نار سودا

أي أنّ جنّة الخلد تكون لأمّة الرّسول-صلّى اللّه عليه وسلّم- أنت تلام بأمّتك، وتكون شفيعها تمنعها من دخول النّار. وفي هذا السّيّاق يقول أميّة بن أبي الصّلت:

هما طريقان فـــائز دخـــل الجنـــ ـــة ـــفّت بـــه حدائقهـــا

وفرقة في الجحيم مع فرق الشّيـــ طان يشقى بها مرافقـــها[8]

وهكذا نلفي شاعرنا يتشاكّل شعره- وبخاصّة رائعته هذه- مع عدد لا يحصى من شعراء العصور الثّلاثة الأدبيّة الأولى، لكنّنا لا نستطيع التّعرض إليها كلّها، نكتفي بمضمون واحد تقاطع فيه مع غيره من شعراء الفصيح ونعني به "الملائكة الّذين يكتبون أفعال العباد" كما قال تعالى:«**ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد.**»[9] وفي آية أخرى: « **مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا.**»[10]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقول سيدي لخضر بن خلوف:

الرّا ربي راه يشوف فينا وملايكة دايما معانا

يكتبوا سيّــا وحسانــا لا نقصان ولا زيادا

بمعنى أنّ الله يراقب عباده وهو حاضر معهم، يتجسّد ذلك في قوله تعالى: «**وهو معكم أينما كنتم.**»[11] وملائكته يكتبون الحسنات وسيّئات العباد كما ذكرنا في قوله تعالى: «**ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد.**»

يتشاكل هذا المقطع الشّعريّ مع قول زهير بن أبي سلمى:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم حساب أو يعجّل فينقم[12]

كما يتشاكل مع قول النّابغة الشّيبانيّ:

إنّ من يركب الفواحش سرّا حين يخلو بسرّه غير خال

كيف يخلو وعنده كــاتباه شاهداه وربّه ذو المجال[13]

ويتلاقى مع قول الحجاج بن يوسف التّيميّ وهو من شعراء العصر الأمويّ:

إذا ما خلوت الدّهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب»[1]

ولذلك نقول غير متردّدين بأنّ شاعرنا الصّوفيّ يغرف من معين الشّعر العربيّ الفصيح ممّا يحقّق التّكامل المنشود في ظلّ العلاقة الحميميّة الّتي تربط الشّعر العربيّ الفصيح بنظيره الشّعر الشّعبيّ الملحون.

الوتيرة الّتي سار عليها الوليّ الصّالح في نظم قصيدته- الّتي أخضعها إلى حروف الهجاء- نجده يخرج عنها في نهاية القصيدة، حيث الحروف الثّلاثة الأخيرة (لا- ي- ء) يجمعها في سياق واحد:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثلاث حروف بقاو ليّا لالف والهمز مع اليا
لخضر توفيلو لمنيـــا لا تجعل موتي نكادا

فهل هذا خروج عن النّظم المألوف لدى البوصيريّ مثلا أو مفدي زكريا في إلياذته؟ أم هي تقنيّة شعريّة ينفرد بها الشّعر الشّعبيّ الجزائريّ تكون من تأصيل سيدي لخضر بن خلوف؟

الإحـــالات:

1- سراج الدّين محمد، الزّهد والتّصوّف في الشّعر العربيّ، دار الرّاتب الجامعيّة، بيروت، لبنان، د.ت، ص :5 .

2- نفسه، ص: 6 .

3- نفسه، ص: 8.

* - من الذّاكرة الشّعبيّة لأحد أعلام الشّعر بمنطقة سعيدة يدعى الحاج حمادي صاحب الثّمانين حيث التقينا به وسرد علينا القصيدة حفظا وشرحا، ولا يزال حيّا يرزق.

4- المصدر الحيّ السّابق.

5- د. مزاري شارف، جماليّة التّلقي في القرآن الكريم، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2009م، ص: 116 .

6- عبد المالك مرتاض، قصيدة أين ليلاي؟، ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1992م، ص:.155

7- د. مزاري شارف، جماليّة التّلقي، ص: 117.

* ينظر المصدر نفسه من ص: 116 إلى ص: 119 .

8- سراج الدّين محمد، الزّهد والتّصوّف في الشّعر العربيّ، ص: 10 .

9- سورة ق، الآية: 18 .

10- سورة الكهف، الآية: 49 .

11- سورة الحديد، الآية: 4 .

12- سراج الدّين محمد، الزّهد والتّصوّف في الشّعر العربيّ، ص: 12 .

13- نفسه، ص: 19 .

14- نفسه، ص: 19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com